ربيعه الرقى الشاعر العباسى الغزل الضرير (*)

ربيعه الرقى الشاعر العباسى الغزل الضرير (*)

ربيعه الرقى :

هو الشاعر ربيعه بن ثابت بن لجأ بن الأسدى الرقى ، من موالى بنى سليم (١) ، وقد أشار إلى انتسابه إلى بنى أسد كما أشار إلى انتسابه إلى بنى سليم ، ينسب إلى بلدة الرقة المشهورة آنذاك على الجانب الشرقى من الفرات وكانت من أهم مدن ما بين النهرين ، وقد وصفها ربيعه نفسه بمقطوعة جميلة ، لقب بالغازى ربما لما يظهر فى شعره من كثرة اللهو والغزل بالجوارى أو العبث بهن كما كنى بأبى شبانه ، ويأبى شبانة ، ويأبى أسامة ، ويأبى ثابت ، وتسكت المصادر عن سنة مولده ، والمرجع أنه ولد أيام بنى أمية ونبه ذكره أيام العباسيين وكانت وفاته بالرقة عام ١٩٨هـ على أرجح الأقوال (٢) ، وتسكت المصادر كذلك عن أخبار أسرته وحياته الخاصة ، فما تجمع حول ذلك شئ نذر ، وكذلك لم تحدد المصادر نوع ثقافته ، إلا أنه كان يعرف القراءة والكتابة ، وكان نصيبه كبيرا ووافرا من الثقافة التى ألح العلماء والنقاد القدماء على توفرها فى الشعراء والكتاب ، فقد كان مطلعا على كثير من شعر سابقيه ومعاصريه وأخبارهم ، كما كان ذا دراية وبصر القرآن الكريم والأمثال والأخبار ، كما كان ذا حصيلة لغوية ونحوية ، وقد انعكست آثار هذه الثقافة على شعره .

(*)الدكتور / صلاح مصيلحى على عبد الله .

(١)ابن رشيق : العمدة ٢ / ١٧٣ ، الأصفهانى : الأغانى ١٩٠/١٦ ، الصغرى : نكت الهجعان ياقوت : معجم الأدباء ١١ط الرفاعى / ١٣٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٦ / ٣٢٢ .

(٢)ياقوت : معجم الأدباء ١٤٦/١١ ، ابن شاكر: عيون التواريخ ، حوادث سنة ٢٠١هـ.

وأشهر صفاته أنه كان أعمى فقيرا عاش عيشى الكفاف فى أكثر سنين عمره ، ومع هذا كان أبى النفس عزيزها ، وصبورا على محن الدهر ونوائبه وقد عمل حمالا ، ودفعه فقره إلى تلمس أسباب الرزق وقضاء الدين عند الممدوحين ، إذ لجأ إلى مدح الولاة والأمراء والسفر إليهم

متكسبا ، إلا أنه لم يكن يطبق العيش فى قصورهم ، مثلما حدث له مع المهدى ، ولا تكاد مصادر الأدب شيئا عن اتصال وشيج أو انقطاع متصل لربيعه الرقى مع خليفة أو وال أو أمير ، أو عن مخالطة الشعراء ، فلا توجد له أخبار تعبر عن صلته بالخلفاء إلا مع المهدى والرشيد ، وقد كشف ربيعه نفسه عن كيفيه اتصاله بالمهدى ، حتى ذكر أن مدحه ليزيد بن حاتم المهلبى وهجاءة ليزيد بن أسيد السلمى كانا السبب المباشر فى ذلك الاتصال ، وكان لربيعه عدة قصائد فى المهدى ([1]) ، أما الرشيد فلم يكن بينه وبين ربيعه الرقى من شئ سوى ما يذكر من أمر تدخله بينه وبين العباس بن محمد ، حين هجاه ربيعه بعد أن بُخل عليه بعد أن مدحه ، وأما صلته بالولاة والأمراء فقد انحصرت فى العباس بن محمد ويزيد بن أسيد ويزيد بن حاتم ومعن بن زائدة الشيبانى ، وقد هجاه لقلة عطائه .

وعلى الرغم من العمى والفقر ، فقد كان ربيعه الرقى مرحا خفيف الروح حلو المعاشرة حاضر البديهة ، ويضربون المثل على خفة روحه وحضور بديهته بقولهم : إنه كان يحب جارته أسمها عثمة لرجل من أهل قرقيسيا ، وكان أهلها ينزلون فى جوار جعفى بالكوفة ، فقال فيها ربيعه أبيات منها قوله :

جعفى جيرانها فقد عطرت جعفى من نشرها ورياها

([1])الأصفهانى : الأغانى ١٩٦/١٦.

فقال له رجل من جعفى : أنا والله من جعفى وأنا جار أهلها بيت بيت ، والله ما شممت من دارهم ريحا طيبة قط ، فتبسم ربيعه الرقى وقال : ما ذنبهم وأنت أخشم (والأخشم هو الذى لا يكاد يشم شيئا) والله إنى لأجد ريحها وريح طيبها فيك وأنت لا تجده فى نفسك (١) .

وكان فى ربيعه لين وتدين ، فقد انساق فى شبابه إلى اللهو والمعاصى والشراب إلى أبعد حد ، أما تدينه فكان فى فترة متأخرة من حياته ، فعندما اشتهت جوارى المهدى أن يستمعن إليه ، أرسل إليه المهدى من أخذه من مسجده فى الرقة (٢) .

شعره وشاعريته :

والرقى من مغمورى شعراء القرن الثانى الهجرى المشهور بكثره شعرائه ، أو هو شاعر لم يكد يسمع به إلا أولئك الذين يدخلون فى بطون كتب الأدب ويتصفحون أوراقها ، أو شاعر ظلمه الدهر فضاع شعره بددا إذ هو من الشعراء المكثرين المجيدين ، كما ذكر الأصفهانى فى أغانيه ، فهل يعقل أن يكون المجموع من شعره بعد جهد جهيد قام به الدكتور يوسف بكار مائتين واثنتين وثمانين بيتا ، ولا شك أن جزءا كبيرا من شعره قد ضاع ، بل الصحيح أن جزءا يسيرا جدا من شعره هو الذى بقى ، فهو من أصحاب الدواوين التى ضنت بها الأيام (٣) ، ومخطوط ديوانه الذى ذكره ابن النديم فى الفهرست ضائع ومفقود ، وقد نسب إلى ربيعه الرقى شعر لم يقله ، ونسب شعره إلى غيره من الشعراء ، وهذه مسألة يجب التنبيه إليها والعمل

---

(١)السابق ١٦ / ١٩٨.

(٢)السابق ١٦/ ١٩٠

(٣)د. يوسف بكار : شعر ربيعه الرقى جمع وتحقيق ودراسة ، ط٢ ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٤ م/١.

على توثيق شعره ومحاولة جمعه بصورة جادة مهتدين فى ذلك بخصائصه الفنية .

وديوان الرقى صغير الحجم كبير المعنى يعادل الدواوين الكبيرة الضخمة ، التى لا نجد فيها الروح التى نجدها فى هذا الديوان ، فهو ديوان يدل على شاعرية جيدة لكن كمالها الفنى مرهون بالعثور على باقى شعره ، وهو يعطى القارئ فكرة عن جمال الشعر وأسلوبه وروعته ، بخاصة أن الرقى كان على جانب من الثقافة وحفظ الشعر وعلى إطلاع بقواعد اللغة وأصولها ، وتذكرنا شاعريته بشاعرية عمر بن أبى ربيعه وبشار بن برد ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف ، وحتى بشاعرية أبى نواس ، ويحتاج ربيعه الرقى إلى دراسة متكاملة تعنى بموضوعية شعره وطاقاته الإبداعية وقدرته التخيلية وقدرته على توليد المعانى ، كما تعنى بإفادته من الشعراء المعاصرين له أو السابقين عليه .

والرقى شخصية غريبة وعُجيبة فى آن واحد ، فقد اشتهر بالغزل وبالفن الحسى بالذات ، مع أنه أعمى ، لكنك إذا قرأت شعره الغزلى تشعر بعذوبة ورقة وسلاسة تكاد تنتفى معها هذه الحسية ، ولم يكن شاعرا غزلا فقط بل كان مادحا هجاء كذلك . وقد اصطنع فى مدحه حيلة فنية يتوسل إلى بلوغ رضا الممدوح . ليحصل بذلك على عطائه ونواله ن وهى مدح سيد وهجاء آخر ، ومن نماذج ذلك قصيدته التى مدح فيها يزيد بن حاتم المهلبى وهجا فيها يزيد بن أسيد السلمى ، ومنها بيته المشهور :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

وربيعه الرقى شاعر مرهف الحسن مشبوب العواطف ، لم يكن أقل قدرة إبداعية من كبار شعراء العصر العباسى ، فهو يقف فى مصافهم إن لم نقل إنه تفوق على كثيرين ، وقد عاش لفنه الشعرى ووضعه على شهواته ، ويدل على ذلك موقفان : الأول ، رفض فيه الزواج من عثمة التى ملأ

أسماع الدنيا بأناشيد فيها ، وقال لسيدها حين عرضها عليه (لا تهبها لى فإن كل مندول مملوك ، فأكره أن يذهب حبها من قلبى ، ولكن دعنى أواصلها هكذا فهو أحب إلى ([1])) ، والثانى ، يوجد خاصية مهمة فى هذا الشاعر ، وهى رفضه العيش فى بلاط الخلافة حيث الشهرة والمال أو مخالطة الشعراء فى بغداد ، وتفضيله العيش فى بلدته الرقة ، وبذلك كان الرقى من شعراء الشام الذين أحبوا الإقامة فى بلدهم / إذ أغرموا بجمالها ، وللرقى وصف طريف لبلدته الرقة ، قال ([2]) :

حبذا الرقة دارا وبلد　　بلد ساكنه ممن تود
ما رأينا بلدة تعدلها　　لا ، ولا أخبرنا عنها أحد
إنها برية بحرية　　سورها بحر وسور فى الجدد
يسمع الصلصل فى أشجارها　　هدهد البر وماء غرد
لم تضمن بلدة ما ضمنت　　من جمال فى قريش وأسد

ولشدة تعلق ربيعه الرقى ببلدته طلب من الخليفة المهدى العباس أن يعاد إلى بلدته الرقة البيضاء ، وكان المهدى قد بعث إليه من حمله على البريد إلى بغداد فشكا الرقى إلى المهدى حمله إلى بغداد هلى هذه الصورة ، فقال ([3]) :

يا أمير المؤمنين الله　　سماك الأمينا
سرقونى من بلادى　　يا أمير المؤمنينا
سرقونى فاقض فيهم　　بجزاء السارقينا

([1])الأصفهانى : الأغانى ١٤٣/١٥ ، ، ود. محمد عبد العزيز الكفراوى : تاريخ الشعر العربى ،/ ٦٨ ، من الرسالة ١٩٦٤ .

([2])الأغانى ١٦ /١٨٩.

([3]) الأغانى ١٦ / ١٥٥ ، وأنظر د : مصطفى الشعكة : الشعر والشعراء فى العصر العباسى ط ٣ دار العلم للملايين بيروت.

فقال المهدى : قد قضيت فيهم يردوك إلى حيث أخذوك ،ثم أمر بـــه فحمل على البريد من ساعته إلى الرقة ، ويشير ربيعه الرقى بذلك إلـــى أن رسل الخليفة قد حملوه إلى بغداد رغم أنفه ، وقد قابل المهدى إعراضه بمثله حين أمر بعودته إلى بلدته ، ولم يكن ربيعه الرقى يكره المهدى وجـواره ولا يخافه ، فحين أشخصه المهدى إليه مدحه ربيعه بعده قصائد وقد أثابه عليها المهدى عطاء جزيلا ، ولكن الرقى حن إلى موطنه فعاد إليـــه ، وكـــان لا يبرحه إلا قليلا ، كما كان يريد أن يعيش حياته ويقضيها حرا طليقا ، كالنحلة الحائمة حول الأزهار أو الطائر المتنقل بين فروع الأشجار .

وعلى الرغم من إعجاب المهدى وجواريه بشعر ربيعـــه الرقـــى ، وتفضيل كثير من معاصريه له عن غيره من شعراء عصـــره ، فإنـــه مـــن الشعراء الذين خمد ذكرهم لأنه انزوى بعيدا فى بلدته على نفسه ، فمن ثم لم يهتم أحد بجمع شعره ودراسته أو رواية أخباره ، وقد ذكر الأصفهانى أن ما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته ، هُو (بعده عن العراق وتركه خدمه الخلفاء ومخالطة الشعراء ، ومع ذلك فما عدم مفضلا لشـــعره مقدمـــا لـــه) (١) ، ونستطيع أن نقول إن ربيعه الرقى من الشعراء القليلين الذين صـــدروا فـــى شعرهم عن موهبة وقدرة فنية متميزة ، كان يقول الشعر بوحى من انفعالـــه الخاص ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرا وأخذ شعره يذيع ويشـــيع ، إذ كان من الشعراء المكثرين المجيدين الذين ذاعت أشعارهم وأقبل عليها الناس ، ولقد جاء ما بقى من شعره على نحو مصقول بسلاسته وجمـــال ديباجتـــه ونصاعة بيانه وألفاظه ، مع الطبع المتدفق والمعانى اللطيفة ، ومع ذلك لـــم تكتب له الشهرة فى أوساط الدارسين ، ربما لضياع أكثر شـــعره ، وربمـــا لإضافة شعره إلى غيره من الشعراء الذين يشبهونه فى طريقته الفنية وفـــى

---

(١)الأغانى ١٦ / ١٩٠.

الموضوعات الشعرية التى طرقها ، فلدى إحساس بأن جزءا كبيرا من شعرة فى باب الغزل ، والغزل الحسى بالذات ، قد أضيف إلى بشار بن برد لاتفاقهما فى فقدان البصر وفى الرقة وفى الخلاعة والتهتك ، وربما لألفاظه السهلة الموحية التى قربت من لغة الحياة اليومية ويسببها قرن الأصفهانى بين أسلوبه الشعرى وبين أسلوب أبى العتاهية الشعرى المفرط فى السهولة(١) ، ولعلة بسبب هذه السهولة وهذا القرب من الحياة اليومية مع الإيحاء ، صل شعره إلى أسماء الخلفاء وجواريه فى بغداد ، وهو لم يزل بعد فى الرقة بلدته ، ومن ثم اشتهت جوارى المهدى أن يستمعن إليه ، فأشخص إليه المهدى من حمله على البريد ، وحين أدخل على المهدى حسا من وراء الستر ، فقال : إنى أسمع حسا يا أمير المؤمنين ، فقال له : اسكت يا ابن اللخناء ، واستنشده ما أراد فضحك وضحكن .

وقد فضل ابن المعتز ربيعه الرقى فى باب الغزل على أهل زمانه جميعا ومن قبلهم ، وقال إنه فى شعره مليح عذب مطبو ع جيد الشعر ، بل إنه لم يجد أطبع ولا أسح منه عزلا ، واعتبر بعض أشاعره أسلس من الماء واحلى من الشعر وعلق على بعض أشعاره بقوله (وهذا أطبع ما يكون من الشعر ,اسهل ما يكون الكلام) ، كما علق على بعضها الآخر بقوله (فهذا كما ترى لا يسمع مثله لشاعر رقة وغزلا) ، وذكر له ابن المعتز كثيرا ما يستملح له من شعره ويروى بكل أرض عند الخواص ، لأن شعره لم يكثر فى أيدى العوام (٢) ، وكذلك استشهد أبو زيد النحوى بشعره دلالة على تفضيله ودفعا لاعتراض وجهه الأصمعى إلى بيته فى المديح :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

---

(١)الأغانى ١٥ / ٣٧.

(٢)ابن المعتز : طبقات الشعراء العباسيين / ١٥٧ وبعدها .

قال الصمعى : لا يقال : شتان ما بينهما ، إنما يقال : شتان هما لكن أبا زيد النحوى كذب الأصمعى وقال : يقال : شتان ما هما وشتان ما بينهما . وبذلك دفع نقد الأصمعى اللفظى لشعر ربيعه الرقى .

وكانت أشعار ربيعه الرقى تنقش على البسط لجودتها ، فقد روى على بن الحسين بن عبد الأعلى أنه رأى قصيدة لربيعه الرقى مكتوبة فى دور بساط من بسط السلطان القديم ، كان مبسوطا فى دار العامة بسر من رأى فنسخا منه نظم هذه الأبيات :

وتزعم أنى قد تبدلت خلة سواها وهذا هو الباطل المنقول

لحا الله من باع الحبيب بغيره فقالت : نعم . حاشاك إن كنت تعقل

ستصدم إنسانا إذا ما حرمتنى بحبك فا نظر بعده من تبدل

كما تمثل الناس بشعر ربيعه الرقى لجودته فى المواقف الكثيرة ، كما أن الشعراء قد عارضوه ، والتمثل والمعارضة يتعلقان بشدة تأثيره فى المديح والهجاء إذ روى أن نخاسا عرض على أحمد بن يزيد بن أسعد السلمى – الذى هجاء ربيعه الرقى بقسوة – جوارى ، فاختار الرجل جار بتين ثم قال للنخاس : أيهما أحب إليك ؟ فقال : بينهما أعز الله الأمير كما قال الشاعر :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

فأمر بجر رجله وإخراجه وجواريه (١) ، وهذا البيت من قصيدة طويلة يمدح فيها ربيعه الرقى يزيد بن حاتم المهلبى ويهجو يزيد بن أسعد السلمى ، وينهج فيها منهج المقارنة بينهما تعبيرا عن المفارقة فى تميز هذا بالكرم وتميز ذاك الشديد فمن ثم كان هذا البيت يضرب كمثل فى كل موقف يستدعى الكرم والبذل والجود، ومن ذلك أن الرشيد حج فجاءه رجلان من قريش ، فانتسب إليه أحدهما وقال : يا أمير المؤمنين نهكتنا النوائب

---

(١)الأغانى ١٦ / ١٩٥.

وأجمعت بأحوالنا المصائب ، ولنا بك رحم أنت أولى من وصلها ن وأمـــل أنت أحق من صدقة ، فمالا بعدك مطلب ولا عنك مهرب ولا مثلك مـأمور ، ثم تكلم الرجل الثانى فلم يأت بشيء فوصلهما الرشيد وفضل الأول تفضيـــلا كثيرا ، ثم أقبل على الفضيل بن الربيع فقال : يا فضل ([1]) :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد أسيد والأغرّ ابن حاتم

وأما المعارضة فتتمثل فى سلخ أبى الشمقمق لبيت ربيعـــه الرقـى السابق ، ونقله فى قصيدة مدح بها يزيد بن مزيد ، قال :

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى إذا عد فى الناس المكارم والمجد
يزيد بنى شيبان أكرم منهما وإن غضبت قبس عيلان والأزد
فتى لم تلده من رعين قبيلة ولا لخم تنميه ولم تنمه نهد
ولكن نمته الغر من آل وائل وبرة تنميه ومن بعدها هند

ولكن لم يسر فى هذا المعنى شئ كما سار بيت ربيعه الرقى ، الـذى حكم بسببه مروان بن أبى حفصة لربيعه بأنه أشعر أهل زمانه ، وذلك حيـن سأله دعبل الخزاعى : من أشعركم جماعة المحدثين يا أبا الســمط ؟ فقـال مروان : أشعرنا أسيرنا بيتا ، فقط دعبل . ومن هو ؟ فقال مروان : ربيعـه الرقى الذى يقول (الشتان ما بين اليزيدين .....

وإذا كان بعض القدماء قد تنبه إلى تميز شعر بيعه الرقى وشاعريته، فإن بعض المحدثين التفت كذلك إلى تميزه ، وذلك حيـــن اعتـبروه أشـهر المتغزلين فى القرن الثانى الهجرى ، بل إن تيارى الغزل العذرى والحسى قد وجدا امتدادا لهما فى شعره موضوعات شعره :

([1])السابق /١٩٦.

تكاد تنحصر موضوعات شعره فى الغزل والمديح والهجاء ، وما بقى منه من قصيدة أو مقطوعة ، فإنه موزع بين الحكمة والشكوى والوصف والعتب والتسلية .

وغزله يمثل المرتبة الأولى فى شعره ، إذ هو الفن الذى انصرف إليه أكثر شعره ، وهو الفن الذى إجادة كبيرة حتى لقب بالغاوى ، ولا عجب فقد كثر الغزل فى العصر العباسى كثرة مفرطة إذ عنى بالنظم فيه جميع الشعراء ، وهى عناية جعلته يزدهر ازدهاراً واسعا ، فقد تداوله أفذاذ الشعراء وصاغوه بعقلياتهم وما أوتوا من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة ، واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة ، وقد احتفظ شعراء العصر الأموى بغير قليل من الحشمة والوقار فى شعر الغزل ، أما شعراء العصر العباسى فقد خرجوا على كل حشمة ووقار خروجا يكاد يكون ثورة ، فهم يتحدثون عن غرائزهم النوعية فى غير تعفف ولا حياء ولا كرامة (١). فليس غريبا أن يكثر شعر ربيعه الُرقى فى الغزل ، وهو من شعراء القرن الثانى الهجرى الذى كثر فيه الغزل وتعددت اتجاهاته تعددا لم يعرف لها مثيل فى أى عصر من العصور ، ففى القرن الثانى الهجرى (سمحت ظروف اجتماعية واقتصادية بظهور طبقة من الشعراء ليست مضطرة إلى أن تكدح فى سبيل المال ، لأنها ورثته وورثت فيه الجاه والمجد من آبائها وأجدادها ، ثم أحست من نفسها بنشاط ينبغى أن يستنفذ وفراغ يجب أن يشغل ، ثم

انتهت تلك الظروف السعيدة وانتهت معها هذه الطبقة اللاهية المشرفة من الشعراء ، وخلف من بعدهم خلف كان عليهم أن يكدحوا ليعيشوا وكان عليهم أن يتجهوا بكل ما ليهم من قوة إلى المدح والهجاء ومعادلة

---

(١)د. شوقى ضيف : العصر العباسى الأول / ٢٣٧٠، ٣٧١.

الخصوم والمناوشين ، وغير ذلك من التبعات التى ألقتها ظروفهم الخاصة على كواهلهم ، فإذا بقى لديهم بعد ذلك فضل من فراغ أنفقوه فى الهوايات الأدبية التى تلد لهم ، وقد تكون هذه الهوايات حديثا عن الخمر والغلمان عند أبى نواس ، أو هجوما على الطبقات العليا فى المجتمع وإن تزيا بزى الزهد عند إلى العتاهية ، أو غزلا حسيا عند بشارين وربيعه الرقى (١) .

وقد جمع ربيعه الرقى فى غزله أكثر اتجاهات الغزل السائدة فى عصره ما عدا الغزل بالمذكر ، واشتهر بحبه للنساء عامة ومن ثم لم يقف فى غزله على امرأة بعينها ، بل تعددت فى غزله أسماء النساء من جوارى زمانه ، وقد جعله تعلقه بفتن جارية وتغزله بغير إمراة ينظم غزلا كثيرا ، انصرف اكثره إلى جارية يقال لها عثمة وكانت جارية لرجل من أهل قرقيسيا يقال له ابن مرار كان قد ولى مصر فأصاب بها مالا عظيما ، ويظهر أن عثمة هذه أول جارية شغف بها ، وحين ذاع معها عرضها عليه سيدها ، فأبى أن يتزوجها حتى لا تخمد جذوة الحب فى قلبه ، وقال فيها (٢) .

أعثمة أطلقى العلق الرهينا ... بعيشك وارحمى الصب الحزينا
ربيعه مغرم بك مستهام ... يحن إليك من شوق حنينا
تعلق زائر لك فارحميه ... فقد أورثت زائرك الجنونا
ولما أن آراك الناس قالوا : ... تعالى الله رب العالمينا
بدت منك الروادف مشرفات ... روادف لم تدع للناس دينا
فقد أعطاك ربك فاشكريه ... جمالا فوق وصف الواصفينا
فما الشمس المضيئة يوم دجن ... بأحسن منك يوم تبذلينا
إذا أقبلت رعت الناس حسنا ... وإن أدبرت قيدت العيونا
فلو أن الملوك رأوك يوما ... لخروا من جمالك ساجدينا

---

(١)د. الكفراوى : تاريخ الشعر العربى ٦٥/٢.

(٢)أنظر : ابن المعتز : طبقات الشعراء العباسيين / ١٦٢.

ولو أن النساء ملكن أمرا لكنت إذن أمير المؤمنينا
لقد أعطيت أردافا ثقالا وقد حملت مالا تحملينا
إذا رمت القيام تخال دعصا يمانعك القيام فتقعدينا
إذا صليت ثم سجدت قلنا ألا يا ليتها سجدت سنينا

وهذه الأبيات من الأشعار التى استملحها ابن المعتز لربيعه الرقى فى باب الغزل ، وقد علق الدكتور شوقى ضيف على بعض أبياتها بقوله : إن الشاعر هنا يريد بالعلق المحب ، أن الأبيات جميلة فى التعبير عن جمال صاحبته التى أو رثت زائرها الجنون – ومن ثم – يطلب منها أن ترجمه وهو الصب الحزين ، والمحب فى حالة قلق وهم وغم لفراق محبو بته أو لهجرها له ومن ثم فهو حزين ، وقد أحسن الشاعر وصف جمال صاحبته بتكرار اللفظ فى قوله (وصف الواصفينا) ، دلالة على كثرة حديث الناس على جمال صاحبته ، أى إنها تشتهر بين الناس بالجمال ، الذى يروع الناس ويجعل العيون نقع أسيرة له ومقيدةً إليه ، وقد أحسن الشاعر الحسن كله فى قوله (رعت الناس حسنا) ، لأن كلمة رعت تستخدم أكثر فى التعبير عن الخوف ، وكلمة حسنا هنا أبرزت المعنى المقصود منها ، والحسن فى أن الشاعر استطاع أن يستخدم الكلمة فى غير موضعها الأصلى منها – أى كلمة ربيعه الرقى وألفاظه الشعرية تخطت حدود ما وضعت له فى أصل اللغة إلى معان مجازية – إيحائية – ، وفى نفس الوقت تعبر عن عاطفة الشاعر ومشاعر ناهيك عن الجمال فى قوله (قيدت العيونا) وما به من دلالة على تعلق قلبه وعينه الدائم بمحبوبته ([1]) ، ويمكن القول بأن هذه الأبيات من عيون الشعر العربى حديثه عن الحب والعشق والغرام ، يبدو فيها الرقى شاعرا صانعا متمكنا من أدوار فنه وصباغته ، فاستطاع أن يحقق لأبياته ما

([1])أنظر : العصر العباسى الأول / ٣٨١.

يجعلها أكثر تأثيرا فى نفس قارئها فهو مؤثر حين كشف عن تعلقه بعثمة وإظهار عجزه وضعفه أمام حبها والحنين الدائم إليها وطلب الرحمة منها بعد أن أورثته الجنون ، وتستطيع أن تقول إنه فى هذه الأبيات متغزل غزلا عذريا وحسيا فى الوقت نفسه ، فليس فيها سوى لإبراز صفات الجمال الإنسانى فى المحبوبة ، الذى جعله مغرما بها حتى أورثته الجنون وليس فيها سوى إظهار الشكوى والحنين والضعف ، وقد التزم الرقى فى أبياته نغمة موسيقية تناسب حديثه عن الشكوى والحنين والضعف ، والتزم التصريح فى البيت الأول ، وحقق لها موسيقى داخلية عن طريق تخير الكلمات وتكرارها ومراعاة الملاءمة بين حروفها وأصواتها ، مثل (يحن حنينا ، إذا أقبلت رعت وإن أدبرت قيدت ، أمرا وأميرا ، وصليت وسجدت سنينا ...)

وتغزل ربيعه الرقى بعثمة أيضا فى قصيدة طويلة مدح فيها بعض الأبيات يزيد بن المهلب ، ومما قال فيها :

اعتد قلبك من حبيبك عيده	شوق عراك فأنت عنه تذوده
والشوق قد غلب الفؤاد وقاده	والشوق يغلب ذا الهوى ويقوده
فى دار المرار غزال كنيسة	عطر عليه خز وزه وبرودة
ريم أغر كأنه من حسنه	صنم يحج ببيعة معبودة
عيناه عينا جو ذر بصريمه	وله من الصبى المريب جيده
ما ضر عثم أن تلم بعاشق	دنف الفؤاد متيم فتعوده
وتلده من ريقها فلريها	نفع السقيم من السقام لدودة

وهى أبيات جميلة تظهره شاعرا غزلا صانعا يتقن أدوات فنه ، ويستخدمها بمهارة ، وألفاظها عذبة رقيقة عاطفية تناسب الحديث عن الحب والغزل ، ومصورة فى قالب يتميز بالتدفق والسلاسة ، ومعانيها تأسر القلب وتعلق به سريعا تتحدث عن الشوق وما يفعله بالناس وتضفى على محبو بته عثمة وحبه لها معنى القدسية ، وقد أحسن تصوير جمالها ووصفها ، فهى

غزال على برودة عطر ، عيناها عينا جو ذر ، وجيدها جيد ظبى ، ولشدة جمالها وحسنها تبدو وكأنها محط أنظار الجميع ، كأنها صنم يحج إليه معبودة.

وفى الأغانى طرائف عدة حول علاقة ربيعه الرقى بعثمة وطريقة الصلة بينهما ، عن طريق الرسل ، فقد روى عن أبى بشر الغزارى أن ربيعه كان حاضرا يوما فجاءته امرأة من منزل عثمة فقالت : تقول لك فلانه إن بنت مولاى محمومة ، فإن كنت تعرف عوذة تكتب لها فافعل فقال : اكتب لها يا أبا بشر هذه العوذة :

ثقوا ثقوا باسم إلهى الذى ... لا يعرض السقم لمن قد شفى

أعيذ مولاتى ومولاتها ... وأمها بعوذة المصطفى

من شر ما يعرض من علة ... فى الصبح والليل إذا أسدفا

فلم تلبث أن عادت إليه الجارية وهى لا تتمالك ضحكا فقالت له : يا مجنون ما فعلت بنا ، كدنا والله أن نفتضح بما صنعت ، فقال : فما اصنع بك ؟ أشاعر أنا أم صاحب تعاويذ (١) .

ولم تكن عثمة أخر من شغف بها ربيعه الرقى من النساء ، فمن بعده شغف بجارية من جوارى الكرخ ببغداد تسمى رخاص ، وقد ذكرنا فى قصيدة علق ابن المعتز بأنها أسلس من الماء وأحلى من الشهد ، ومما جاء فيها قوله :

أنا للرحمن عاصى ... لمحبوتى بر خاص

ثم للناس جميعا ... من أدان وأقاصى

ورخاص الكرخ ظبى ... لم أنل منه افتراضى

ولقد طال ثابوا ... ب الخريمى اقتصاص

---

(١)الأغانى ١٦/١٩٩.

طمعا فى صيعد ظبى ذى شماس وملاص
صيده أعسر من صيـــــــد الضوارى والقلاص
يا رخاصا يا رخاص الكرخ يا ذات العقاص
والثنايا الغر كالبر ق تلألأ فى النشاط
ثم ردف كنقا الرمـــــــــــل وأحشاء خماص
أنا فى تفضيلك الدهـــــــــــر ألاحى وأناصى
ما أبالى من لحانى فيك أو رام انتقاصى
ولقد عذبت روحى فمتى منك خلاصى
فاتقى الرحمن فينا وأحذرى يوم القصاص
قلت شعرا ينزل الأعصـــــــم من رأس الصياصى
والغوانى مغويات مولعات باقتناص
قد تواصين بحبى حبذا ذاك التواصى
باذل فى الخير لا ينظـــــــــر منه فى ارتخاص
مهلك الأموال فى اللـــــــــذات فحشى القصاص
قد سقتنى وسقته قينه ذات عقاص
فى أبارق لجين لا أبارق رصاص
ولدينا أدكن الجلـــــــــدة كالرز نجى شاص
ذاك من معصية اللـــــــــه وهمى فى العاص (١)

ولقد كان ابن المعتز محقا فى تفضيل الرقى فى الغزل على كثير من معاصريه وسابقيه إذ يبدو فى هذه الأبيات شاعرا مطبوعا صحيح الطبع رقيق الغزل ، وإن كان حسيا فى غزله ، الذى تتبع فيه أثر الخريمى

---

(١)أنظر : طبقات الشعراء العباسيين لابن المعز / ١٥٩ ، ١٦٠، ١٦١ .

وطريقته فى الغزل ، وقد سلك الرقى فى هذه الأبيات مسلك الحكاية أو القصة ، إذ تبدو القصيدة مؤثرة لكونها قصه محب عاشق يتذلل ويتضرع لحبيبته أن ترحمه ، كما كان دقيقا فى استخدام الألفاظ الرقيقة الدالة فى هذه الحكاية أو القصة ، التى تعمد فيها صيد ظبى من سماته أنه ذو ملاص أى إفلات ، ولذلك فإن صيده أعسر من صيد الضوارى والقلاص أى فرخ الحبارى ، وحين أراد أن يصف جمال رخاص ذكر أنها ذات عقاص وثنايا غر كالبرق المتلألأ فى النشاص ، أى السحاب المرتفع بعضه فوق بعض ، وهى ذات ردف كنفا الرمل وأحشاء خماص ، دلالة على أنها نحيلة الخصر ، لذلك يفضلها أبد الدهر ، ويخاطبها بأنها عذبت روحه فمتى منها خلاصه ، ويطالبها باتقاء الرحمن فيه وأن تحذر يوم وأن القصاص .

ويتمثل جمال الأبيات فى تلك المفارقة التى يصورها ، فبينما هو يتضرع ويتوسل إلى رخاص ، فإنه يصور الغوانى مولعات باقتناص وقد تواصين بحبه ، ويتحدث الرقى عنُ الخمر والفتنة التى سقته وإياها فى أباريق من فضة لا من رصاص ، وهى قينه ذات عقاص وألباريق كالزنجى الشاصى أى الممتلئ ، إذ يقال : شصت القرية أى ملئت فارتفعت قوائمها ويضفى الرقى الجمال على القينه إيحاء بجمال رخاص ، ويتعمد الرقى فى تعبيره الألفاظ العذبة الرقيقة السهلة ويفصل فى المعانى ، ويتخير موسيقى تلائم الموقف وتناسب حالته النفسية ، وقد حقق موسيقاه عن طريق استخدام القافية من نفس الحرف الذى ينتهى به اسم محبوبته ، إلى جانب التصريح فى البيت الأول ، والمشاكلة بين حروف الكلمات وأصواتها ، والتقطيعات الصوتية المنتشرة فى القصيدة ، والتى تبدو قطعة متماسكة متلاحمة متنامية بصورة البيانية ، من التشبيهات والاستعارات التى اشتملت عليها القصيدة ، ولا شك أن هذه القصيدة ومثيلتها تكشف عن الطاقة الإبداعية الكبيرة التى

يتميز بها ربيعه الرقى ، والجمال فى صورة الشعرية أنها بصريـــه وكـــان أعمى ضريرا ، مما يتيح لها قدرا أكبر من التأثير .

وتعلق ربيعه الرقى بجارية تسمى داحا ، ويظهر أنها كانت نازحـــة بعيده عنه ، وقد قال فيها شعرا كثيرا جميلا ، وقد ذكر له ابن المعتز قصيـدة فيها صدرها بقوله : ومما يستجاد له قوله ([1]) :

صاح إنى غير صاحى أبدا من حب داح
صار قد حاجب داح فى فؤادى المستباح
جنح القلب إليها إن قلبى ذو جناح
وعصى فى حب داح كل لوام ولا حى
ليت لى رسلا من الجـــــــــن إليها والرياح
تبلغ الحاجات عنى ثم تأتى بالنجاح
داح داح حب نصر آخ من حبك أخ
أنا والله قتيل لك من غير جراح
لا بسيف يقتلنى لا ولا سمر الرماح
أنت للناس قتول بالهوى لا بالسلاح
وبشكل وبدن ويغنج ومزاج
بعينين صيـــوديـــــــــن وثغر كالأقاحى
ليتنى كنت حماما لك مقصوص الجناح
أيها الناس ذرونى لست من أهل الفلاح
أنا إنسان معنى بهوى المرض الصحاح
أنا زير للغوانى وأخو لهو وراح
غير أنى لست أغشى أبدا باب السفاح

([1])السابق / ١٦١، ١٦٢.

إن ربع ابن نصير معدن من البيض الملاح
فيه داح ولما فى حب داح من جناح
وفتاة غير داح ذات لهو ومزاح
قد تجشمت إليها هول ليل ونباح
فخلونا بفتاة غادة نمرثى الوشاح
فلبست العكن البيض من الخود الرواح
ثم لما صاح ديك قبل إبان الصباح
قلت : صح يا ديك ألفا ليس ذا وقت البراح
أو أرى الصبح وإن كا ن ليس لفى الصبح افتضاحى

ونشعر كأنه ربيعه الرقى يغير من طريقته فى الأداء والصياغة ليصل إلى التأثير المطلوب ، وكان بارعا فى تحقيق قدر من الجمال فى هذه الأبيات ، عن طريق تكرار اسم المحبوبة على طول القصيدة وعرضها ، وعن طريق انتهاج أسلوب القصيدةُ أو الحكاية ، فهو يحكى قصة رجل قتله الهوى ، هوى حبيبته ، ويفصل كيف قتلته حبيبته بغير جروح ، لأنها لا تحارب بالسلاح إنما تحارب بالعيون والشكل الجميل والدلال والظرف ، وعن طريق تصوير المفارقة المتمثلة فى كونه قتيل داح ثم هو زير للغوانى، وزير الغوانى هو الذى يحب محادثتهن ، وفى جمال القصيدة الأساليب التى اشتملت عليها ، كالتمنى فى أن يكون له رسل من الجن والريح تبلغ حاجاته إليها وتأتى بالنجاح ، وفى أن تكون حماما مقصوص الجناح لداح ، التى يعانى من وحبها معاناة شديدة جعلته يحسن وصف جمالها الرائع ، ويبدو خيال الرقى هنا قويا ، إذ استطاع به أن يجمع بين المتناقضات على مستوى اللفظ والمعنى ، فهو قتيل داح ومع ذلك فقلبه ذو ميل إليها ، وهو زير للغوانى ويحب داحا وفتاة أخرى غير داح ، ومع هذا لم يغش أبدا باب السفاح ، ويخلو بالفتاة حتى يؤذن الديك فيقول : صح يا ديك ألفا ، فلن أبرح

حتى أرى الصباح ، وهو يعلم أن فى الصباح الافتضاح ، وخيال الرقى أيضا هو الذى جعله يتخير لقصيدته ألفاظا سهلة رقيقة عذبة تلائم الموضوع وتعبر عنه وقد منح ألفاظه فعاليات متجددة فى سياقاتها المختلفة ، عن طريق الأساليب المختلفة التى استخدمها ، من الأخبار والتمنى والنداء والخطاب بما تشتمل عليه من تغير مجرى الكلام ، وعن طريق الصور البيانية المتعددة ، كالكتابة الرقية التى عبر بها عن كونها نحيلة الخصر :-

فخلونا بفتاة غادة غرثى الوشاح

وعن طريق تلك الموسيقى الناتجة عن استخدام قافية هى اسم الحبيبة واستخدام الموسيقى الداخلية التى برزت عن طريق تكرار التصريع فى القصيدة ، واختيار الألفاظ والمشاكلة بين حروف الألفاظ والأصوات ، وتحقيق كثير من التقطيعات الصوتية المنتشرة فى القصيدة ، إلى جانب الكثير من ألوان البديع كالجناس والمقابلة وغيرهما ، ويبدو الرقى من خلال هذه القصيدة وما سبق ذكره من أشعار مغرما فى غزله بشيئين أولهما : التركيز على وصف الخصر بالتحول مع أنه كان أعمى لا يرى ، وثانيهما : تحقيق قدر كبير من الموسيقية المؤثرة لقصائده الغزلية .

وتعلق ربيعه الرقى بجارية أخرى هى سعاد أو سعدى ، وكانت نائية عنه هى الأخرى ، وما أكثر ما كان يحلم بها ويداعب طيفها ، وله فيها أشعار كثيرة تصور حبه وهيامه بها وما كانت تراسله به من رسائل ، كما تعلق بجارية أخرى كانت تسكن العراق أيضا هى غنمة أو عنام ، وفيها يقول (١) .

أفى هجران بيتك تصرمينى وما رمنا لصرمكم حراما

ولم أهجرك مقلية ولكن حللت عراقكم وحللت شاما

---

(١)السابق /١٦٣.

فيا غنام يا بصرى وسمعى رسيس هواك أورثنى سقاما
لقد أقصدت حين رميت قلبى بسهم الحب إن له سهاما
ولو فتنتنى بك فاعلميها إذا صلى ربيعه ثم ناما
أقام الحب حبك فى فؤادى وحبى فى فؤادك قد أقاما
كلانا وافق كلف معنى بصاحبه وما يبغى صراما
فياليت النهار يكون ليلا وليت الصبح لا يخلو الظلاما
لعل حمامة تهدى إلينا كتابا منك بحفله إماما
وتبلغك المحبة من محب أحبك قلبه يفعا غلاما
وما ذنبى وحبك هاج هذا ولو ترك القطا لعفا وناما
وكل الحب لغو غير حبى فقد أروى الحشا ويرى العظاما

ولقد كان الغزل الحسى صورة من صور الاضطراب والاختلاط الاجتماعى فى العصر العباسى ، ومنه نوع يرق فى عواطفه ويدق فى معانيه ، ونوع يهاجم الذوق ويتحدى العرف ، ونوع يسلك طزيقا وسطا بين هذا وذاك ، ونوع يمثل الأذواق الذى اتخذ من بشار بن برد أستاذا له ورائدا ينسخ على منواله ويتبع خطواته ، وبخاصة ذى ذلك النوع من الغزل الذى يتحدى العرف ، وليس عجبا أن يحاكى الرقة بشار فى جرأته على تحدى العرف ، فقد كان أقل منه سنا وهناك صلة قوية تربط بين نفسيهما وهى فقد البصر ، وبسبب هذه المحاكاة كان الرقى كثيرا ما يغير مجرى حديثه العذب الوديع فى غزله ، ويستسلم للأمانى الجريئة والمعانى الجنسية الشريرة ، وبسبب هذه المحاكاة لشعر بشار نرى التفاوت بين أطراف شعره (١) ، ومن غزل الرقى الذى يمثل ذوقا معربدا ذوق المولعين بالمتع الحسية من أهل المجون ، وقوله لحبيبه :

---

(١)د. الكفراوى : تاريخ الشعر العربى ٢/ ٦٦ ، ٦٨ ، ٨٢.

أنت الهوى ومنى نفسى ومنعتها أقول ذاك ولا أخفيه عن أحد
وأنت طيبة فى القيظ باردة وفى الشتاء سخون ليلة الصرد
تسقى الرضيع رضايا من مقبلها من بارد واضح الأنياب كالبرد
يا ليتنى قبل موتى قد خطوت بها على الحشية بين السجف والنضد
قد وسدتنى اليد اليمنى وبارقها ودملج العضد اليسرى على عضدى

فالرقى يتحدث هنا عن المرأة حديثا جنسيا مكشوفا ، يتنافى مع تلك العبادة والتقديس ، الذى وصل إلى درجة التحرج من الزواج منها ، فقد خشى أن تخمد فى قلبه جذوة الحب فى قلبه ويخبو معها شعره ، لعل فى رفضه الزواج من حبيبته عثمة حين عرضها عليه سيدنا ، ما يوحى بأنه كان صادقا فى شعرة الغزلى ، فالزواج يطفئ الحب الذى هو الجذوة التى تجعله ينشد الشعر.

ويذكرنا ربيعه نفسه بالعذريين فى قصيدة طويلة تمثل هذا التيار العذرى ، قال :

كرام الناس قلبى قد أحبو كرائمهم وأحببن الكراما
جميل والكثير قد أحبا وعروه من هوى لا فى حماما
هم سنوا الهوى والحب قلبى وما ألقى لهم فى الناس ذاما

ويمضى الرقى فى قصيدته بمثل منطق الغزلين العزلين الذين ذكرهم وروحهمى (١) ، وقال :

زجرت القلب عنك فلم يطعنى ويأبى فى الهوى إلا اعتزاما
إذا قلت : أقصروا سل عنها أبى من حرمكم إلا انهزاما

---

(١) د . عز الدين إسماعيل ، فى الشعر الرؤية والفن / ٣٩٥

وهكذا وجد تيارا الغزل القديمان امتدادا لهما عند ربيعه الرقى ولكن ينبغى التنبه إلى أن مذهبه فى الغزل يختلف عن مذهب شعراء العفة ، بالرغم من أنه ظاهريا أحد السالكين مسلكهم أو المقتفين أثارهم ، وهو على أية حال كان بارعا فى الغزل ، لذلك عد من أشهر المتغزلين فى القرن الثانى الهجرى

مدحه وهجاؤه :

لم يصل إلينا منهما إلا النزر اليسير من شعره ، وما بقى من شعره فيهما لا يسعفنا فى الحكم الغنى عليه ، ولكنه يبدو من أقدر أهل زمانه على القول فى المديح والهجاء ، على الرغم من كف بصره وسكناه قرية بعيدة فى أطراف الشام ، والشئ العجيب أن المديح والهجاء يتلازمان فى شعرة تلازما واضحا ، وقد مدح الخليفة المهدى بعدة قصائد فأثابه عنها عطاء جزيلا إذ أعجب بشعره كما قال يزيدين حاتم المهلبى ويزيدين أسيد الأسدى ، ومدح العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بقصيده طويلة لم يسبق إليها حسنا ، وكان الرقى إذا مدح فلم يجزل له العطاء يتحول من المديح إلى الهجاء ، بل يسرف فى هجاء ممدوحة ، ومن ثم تلاقى المدح والهجاء فى شعرة ، فقد مدح العباس بن محمد عم هارون الرشيد بقصيدة عدت من عيون الشعر العربى ، قال فيها (١) :

لو قيل للعباس يا بن محمد ... قل : لا وأنت مخلد ما قالها

ما إن أعد من المكارم خلة ... إلا وجدتك عمها أو خالها

وإذا الملوك تسايروا فى بلدة ... كانوا كواكبها وكنت هلالها

إن المكارم لم تزل معقولة ... حتى حللت براحتيك عقالها

---

(١)الأغانى ١٦ / ١٩١.

غير أن الرقى أصيب بخيبة أمل كبيرة ، فقد كان العباس هذا بخيلا فأجازه على قصيدته بدينارين وقيل بدرهمين ، فتملكه الحنق والغضب فدس إليه من خدمه من أوصل إليه هذه الأبيات :

مدحتك مدحة السيف المعلى لتجرى فى المكارم كما جريب

فهبها مدحة ذهبت ضياعا كذبت عليك فيها وافتريت

فأنت المرء ليس له وفاء كأنى إذ مدحتك قد زنيت

فلما قرأ العباس هذه الأبيات ثارت ثائرته وشكاه إلى هارون الرشيد، الذى كان يعتزم الزواج من ابنه العباس ، فأخذ الغضب من الرشيد كل مأخذ، وأرسل خلف ربيعه الرقى ليعاقبه ويقتص منه ، فعرض له الرقى القصة وأسمعه قصيدته فى مدحه فتهلل وجه الرشيد للرقى وأجزل له العطاء ورجاه أن يكتمها عن الناس ، وعدل نتيجة ذلك عن الزواج من ابنه العباس ، وفى تفصيل هذه القصة يذكر أن الرشيد قال للرقى أتهجو عمى وآثر الخلق عندى ، فقال الرقى : مدحته بقصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء فى أحد من الخلفاء ، ولقد بالغت فى الثناء وأكثرت فى الوصف ، فنظر الرشيد فى القصيدة فاستحسنها وأجادها وأعجب بها وقال : والله ما قال أحد الشعراء فى أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربيعه وبر ، ثم قال للعباس : كم أثبته فسكت العباس وتغير لونه ، فقال الرقى : أثابنى يا أمير المؤمنين بدينارين ، فغضب الرشيد من العباسى وفتر عما كان هم به من أن يتزوج إليه ، وأظهر له بعد ذلك الجفاء الكثير ، وأمر لربيعه الرقى بثلاثين ألف درهم وخلعة وبلغة ، وطلب الرشيد من الرقى ألا يتعرض للعباس فى شدة مدحا أو تعرضا (١).

---

(١)الأغانى ١٩٢/١٦ ، وطبقات الشعراء / ١٥٧ ، د . مصطفى الشكعة الشعر والشعراء /٥٥٢.

واتصل ربيعه الرقى بقائدين من قواد المنصور العباسى هما يزيد بن حامد المهلبى ويزيد بن أسيد السلمى الأسدى ، وقال فيهما شعرا كثيرا اصطنع فيه حيلته الفنية المعروفة ، وهى مديح شخص وهجاء آخر ، فقد تمادى فى مديح يزيد بن حاتم كما تمادى فى هجاء يزيد بن أسيد ، وذلك فى قصيدة طويلة جرى بيت منها مجرى الأمثال ، قال ([1]) .

حلفت بمينا غير ذى مثنوية يمين امرئ آلى بها غير آثم

لشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيد سليم والأغر ابن حاتم

يزيد سليم سالم المال والغنى وأخو الأزد للأموال غير سالم

فهم الفتى الأزدى إتلاف ماله وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

فلا يحسب التمتام أنى هجوته ولكننى فضلت أهل المكارم

سعيت ولم يدرك نوال ابن حاتم لفك أسير واحتمال الغطائم

كفاك بناء المكرمات ابن حاتم ونمت وما الأزدى عنها بنائم

فيا ابن أسيد لاتسام ابن حاتم فتفرع عن ساميته سمه نادم

هو البحر إن كلفت نفسك خوضه تهالكت فى آذيه المتلاطم

فالرقى يمدح ابن حاتم ويهجو ابن أسيد معرضا بما كان فى لسانه من تمتمة واستغرق فى هجاء ابن أسيد لأنه زاره يستميحه لقضاء دين عليه ، فاستمحته قلم يجد عنده ما أحب ، وبلغ ذلك يزيد بن حاتم فقضى دينه وبره ، فاستغرق الرقى جهده فى مدحه ، وله فيه قصائد مختارة يطول ذكرها ، وحين سئل الرقى : يا أبا أسامة ما حملك على أن هجوت رجلا من قومك وفضلت عليه رجلا من الأزد ؟ قال : أما فلم يبق لى إلا دارى

فرهنتها على خمسمائة درهم ، ورحلت إليه – يقصد يزيد السلمى فأعلمته بذلك ومدحته وأقمت عنده حولا ، فوهب لى خمسمائة درهم فتحملت

([1])أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢ / ٢٢١

وصرت بها إلى منزلى ، فلم يبق معى كبير شئ فنزلت فى دار نكراء ، فقلت : لو أتيت يزيد بن حاتم ثم قلت : هذا ابن عمى فعل بى هذا الفعل فكيف غيره ؟ ثم حملت نفسى على أن آتيه فاعلم بمكانى فتركنى شهرا حتى ضجرت ، فاكريت نفسى من الحمالين وكتبت بيتا فى رقعة فألقيته فى دهليزه ، وهو :

أرانى ولا كفران لله راجعا يخفى حنين من يزيد بن حاتم

فوقعت الرقعة فى يد صاحبة فأوصلها إليه من غير علمى ولا أمرى فبعث خلفى واستنشدنى وأمر بنزع خفى حنين فحشاهما دنانير وأمر لى بغلمان وجوار وكساء ، أفلا ترى أن أمدح هذا وأهجو ذاك ، فقال السائل : بلى ، ثم قال الرقى : وسار شعرى حتى بلغ المهدى فكان سببى إليه (١) .

ومدح ربيعه الرقى معن بن زائدة بقصيدة أنشده إياها راويته ، فلم يهش معن وأثابه عنها ثوبا نزراً ، ولم يرض ربيعه لقاؤه فرد عطاءه وهجاه هجاء كثيرا ، ومما جاء فيه :

معن يا معن بن زائدة الكلب الذى فى الذراع لاقى البنان
لا تفاخر إذا فاخرت بآبائك وأفخر بعمك الحوفزان
فهشام بن وائل فى مكان أنت ترضى بدون ذاك المكان
ومتى كنت يا ابن ظبية ترجو أن تبنى على ابنه الغضبان
هى حوراء كالمهاة هجان لهجان وأنت ميز هجان
وبنات السليل عند بنى ظبية أف لكم بنى شيبان
قبل معن لنا فلما اختبرنا كان مرعى وليس كالسعدان

وقد قال أبو بشر الفزارى إن ظبية التى عبره بها عبدة أمة كانت لبنى نهارين أم ربيعه بن ذهل بن شيبان ، لقيها عبد الله بن زائدة بن مضر

---

(١)الأغانى ١٦ /١٩٦ .

بن شريك ، وكانت راعية لأهلها وهى فى غنمها ، فسرقها ووقع عليها فولدت له زائدة بن عبد الله أبا معن بن زائدة ودجاجة بنت عبد الله ، قال : وبنت السليل التى عناها امرأة بنت ولد الحوفزان ([1]).

أسلوبه ومعانيه وطريقة تعبيره :

يمكننا القول استنادا إلى ما بقى من شعر الرقى أنه شاعر من أفذاذ الشعراء ، وذو طاقة شعرية كبيرة فى الغزل والمديح والهجاء ، فهو من أعظم الشعراء العباسيين مع بشار بن برد خوضا فى الغزل الحسى لحرمانه من نعمة البصر ، يخلق نوعا من الرغبة الجاممة والحنين العميق غلأى المتع التى تنال بحواس أخرى كالسمع واللمس والذوق ، ولا شك فى أن المرأة بما تملكه من أساليب الأغراء تروى عطش تلك النفوس الظمأى وتعويضهم عن كثير من ألوان المتع الجمالية ، التى فقدوها فى جوانب الحياة الأخرى ([2]) وقد كانت ألفاظ الرقى فى غزله تأتى أحيانا من النوع الجزل المتين الفحم ، لكنها لم تتخل عن السهولة وقد حقق لها الرقى تأثيرها المطلوب عن طريق ألوان البديع والبيان ، ولجأ إلى بعض الحيل الأسلوبية ، كأسلوب الحكاية أو القصة الشعرية ، التى هى عبارة عن أخذ ورد وحوار يسير بين السائل والمجيب ، فى شعر جذاب ونغم مطرب ،وإيقاع وغناء مثير ، يدل على قوة الشاعرية وصدق المعاناة والسيطرة على روح القصيدة ، وتذكرنا الرقى بذلك بغزل عمر بن أبى ربيعه فى طريقته وأسلوبه القصصى الجوارى ، فقصيدة الرقى الميمية تذكرنا بقصيدة عمر الرائية ، قال الرقى :

دست سعاد رسولا غير متهم وضيعه فأتت إيتان منكتم

جاء الرسول بقرطاس بخاتمة وفى الصحيفة سمر خط بالقلم

([1])السابق / ١٩٨.

([2])د . هدارة : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى / ٥٣٢ ، ٥٣٣.

فيه فنون هوى ظلت تغيبه على الجهول وما يخفى على الفهم
قالت تعالى إذا ما شئت مستترا والحكم حكمك يا رقى فإحتكم
زارتك سعدى وسعدى منك نازحة فارقتك وما زارتك من أمم
أقدم ربيعه فى رجب وفى سعة فى غير قمراء والظلماء فاغتنم
أهلا بطيفك يا سعدى الملم بنا طيف يسير بلا نجم ولا علم
أنت الضجيج إذا ما نمت فى حلمى والنجم أنت إذا ما العين لم تنم
ما أكذب العين والأحلام قاطبة أصادق مرة فى وصلها حلمى
هام الفؤاد بسعدى من ضلالته يا ليت قلبى بكم يا سعد لم يهم
أنت الذى أورثت قلبى مودتها داء وخيلا وشوقا غير منصرم
خلقت من مسكة والناس خلفهم من لازب الطين من صلصال القتم
ما صور الله إنسانا كصورتكم من بعد يوسف فى عرب ولا عجم
تبنا وصمنا وصلينا لخالقنا ولم تتب أنت من ذنب ولم تصم

ويسترسل الرقى بأسلوب قصصى شعرى :

لا قيت عند استلام الركن غانية أغراء واضحة الخدين كالصنم
حتى إذا انصرفت سلمت فالتفتت فقلت : أنك من همى ومن سدمى
قالت : ومن أنت ؟ فلن التابعات لها هذا ربيعه هذا فتنه الأمم
هذا المعنى الذى كانت مناسبة تأتيك فاستترى بالبرد والقتم
قالت : أعوذ بربى منك واستترت لغادة رخصة الأطراف كالعنم
قلت الزمام وعهد الله خفت به لا عهد للغادر الختار للذمم
ألم تقولى نعم ؟ قالت : بلى وهما منى وهل يؤخذ الإنسان بالوهم
فلمت نفسى على بذلى لها مقتى وبخلها وقرعت السن من ندم
فأبعد الله إنسانا وأسحقه أدام ودا لإنسان ولملا يدم

وهذه الأبيات بأسلوبها القصصى الشعرى وألفاظها الجزلة الفخمة المتينة التى لم تتخل عن السهولة ، قد حقق لها الرقى تأثيرها عن طريق

الطباق المنتشر فيها الجهول والفهم . ولا ونعم ، وقمرا وظلما ،وعن طريق المقابلة مثلما نجد فى الأبيات الستة الأخيرة من المجموعة الأولى ، كما حقق تأثيرها عن طريق التضمين ، كتضمينه قصة سيدنا يوسف وما عرف عن تميزه فى الجمال ، وتضمينه لخلق الناس من الطين إشارة إلى تميز محبوبته فى خلقها ، وعن طريق الموسيقى المناسبة لجو الأبيات ومعانيها ، عن طريق تصوير المفارقات التى اشتملت عليها كثير من الأبيات التى يتميز بناؤها بالجمال الفنى لفظا ومعنى ، كقوله (تبنا وصمنا وصلينا لخالقنا ....) .

ومن الوسائل الفنية التى اصطنعها الرقى فى أسلوبه الغزلى ليضمن التأثير المطلوب ، التوسل بالحمام لإبلاغ سلامه إلى الحبيبة التى ألقت بسهم الحب فى قلبه وتركته صريعا عاجزا قال :

حمامة بلغى عنى سلاما جبيبا لا أطبق له كلاما
وقولى للتى غضب علينا علام وفيك يسكنى علاما
عدينى أن أزورك إن دارى ودارك لا أرى لهما التئاما
وإن جميع أهلك عنقونى ولا مونى ولم اطق الملاما
أحب حديثها وتحب قربى وما أن نلتقى إلا لماما

ويبدو ربيعه فى بعض شعره الغزلى منتهجا النهج التقليدى ، إذ يبدأ قصائدة بمقدمات تقليدية مقتفيا أثر القدماء ، ففى قصيدته الدالية فى ليلى خاطب خيلية كامرئ القيس وطرفه وغيرهما من القدماء ، فقال :

خليلى هذا ربع ليلى فقيدا بغيركما ثم إبكيا وتجلدا
قفا أسعدانى بارك الله فيكما وإن أنتما لم تفعلا ذلك فاقعدا
وإلا فسيرا واتركانى وعولتى أقل لجانبى دفنه الدار أسعدا
فقال وقد طال الثوى عليهما لعلك أن تنسى وأن تتجلدا

ومن الصور والمعانى الشعرية القديمة فى غزلـــه ، تشـــبيه أســـنان المرأة بالبرد تارة وبالبرق فى لمعانه تارة آجرى ، وتشبيه جيد المرأة يجيـــد الظبى أو بقضيب البان وعجزتها بالدعص الركام ، قال :

بنوط وشاصها بقصيب بأن ويكسو مرطها وعصا ركاما

ويردد الرقى مارددده القدماء عن عيون المرأة وأردافها ونحافتـــها ، قال مرتجفة الأرداف مهضوم كواشحها تمشى الهوينى كمشى الشارب الثلـــم .وقد يخلط الرقى بين القديم والجديد فى غزله ، ومع ذلك تظل لشعرة نكهـــة خاصة وجاذبية منفردة ، من حيث رقة الألفاظ والمعانى وعذوبتها وســـهولتها وسلامة طبع صاحبها ، وقد ذكر الدكتور عز الدين إسماعيل ، أن الرقى يكاد يكون نسخة مكررة من عمر أبن أبى ربيعه ، ولكن على الرغم من التشـــابه بينهما فإنا نجد للرقى شعرا يذكرنا بنغمة العذريين ونهجهم الشعرى ، ففـــى شعره الغزلى أشتات من خصائص العذريين الأمويـــن ، وشـــعراء الغـــزل العفيف من معاصرية كالعباس بن الأحنف ، من مثل معانى التعلل بـــالوعد والأمانى والتعلق بالآمال والخوف من الرقباء ، وبـــث الشـــكوى والحرقـــة والصبابة والشوق والحنين ، ومن تعليل النفس بالوعد والمنى ما رواه له ابن المعتز مما يستملح من غزله قوله .

أعلل نفس منك بالوعد والمنى فهلا بيأس منك قلبى أعلل
وامنح طرف العين غيرك رقبة حذار العدا والطرف نحوك أميل
لكيما يقول الناس : إن إمرأ رمى ربيعه فى ليلى بسوء لمبطل
فلو كنت ذا عقل لأجمعت صرمكم برأى ولكنى أمرو لست أعقل
أغرك أنه لاصبر لى طلابكم وأن ليس لى إلا عليك معول
ولما تبينت الذى بى من الهوى وابقنت أنى عنك لا أتحول
ظلمت كذئب السوء إذ قال مرة لسحل رأى والذئب غرنار مرمل
أأنت الذى فى غير جرم شتمتنى فقال : متى ذا ؟ فقال : ذا عام أول

فقال : ولدت العام بل رمت غدرة فدونك كلنى لأهنا لك مأكل
أتبكين من قتلى وأنت قتلتنى بحبك قتلا بيننا ليس يشكل
فأنت كذباح العصافير دائبا وعيناه من وجد عليهن تهمل
فلو كان من رأف بهن ورحمة لكف يدا ليست من الذبح تعطل
فلا تنظرى ما تمهل العين وانظرى إلى الكف ماذا بالعصافير تفعل

عموما تميز غزل الرقى بأن شعر مصقول فى طبع متدفق ومعان لطبقة وبيان ناصع ، إلى جانب الدافع النفسى ، والدافع النفسى كان رائده فى مدحه وهجائه كذلك ، فلم يكن يمدح ويهجو ليكسب المال فقط ، إنما كان يتحول من المديح إلى الهجاء بدافع نفسى يتمثل فى إحساسه بعدم التقدير ، وقد جمع مديحه وهجاؤه بين الظرف والمرارة ، وقام جمال أسلوبه فيهما على تصوير المفارقات ن مما جعله مجيدا فى مديحه لاذعا فى هجائه ، لم يكن ربيعه الرقى عبدا للمال أو مجاملا مجاملة زائفة رخيصة ، ومن ثم كان صاحب انفعال مميز فى مديحه وهُجائه ، وقد حفل أسلوبه بمعانى المديح القديم كأن يشبه الجود بالبحر أو الممدوح بحرا فى الكلام ، وقد استهل بعض مدائحه بمقدمات ، تارة يدخل إلى الموضوع مباشرة بلا مقدمات ، فقد استهل إحدى مدائحه ببيتين فى الطيف ، ولم يشارك الرقى شعراء عصره فى الثورة على الأطلال .

وقد أخذ بعض الدارسين عليه ضعف التعبير والتكرار اللفظى الثقيل والحشو المعيب ، ولكن ذلك لا ينفى قدرته الشعرية أو يقلل منها ، فهو شاعر مبدع له الكثير من المعانى التى تأثر فيها بالقرآن الكريم ، كقوله :

لمن ضوء نار قابلت أعين الركب تشب بلدن العود والمندل الرطب
فقلت لقد آنست نارا كأنها صفا كوكب لاحت فحن لها قلبى

فمعنى البيتين مصوغ على معنى الآية الكريمة (وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى أنست نارا) ، وقال الرقى :

فاتقى الرحمن فينا واحذرى يوم القصاص
مشهد يؤخذ بالأقـــــــــــــــدام فيه والنواصى

وهو معنى دينى تصويرى ليوم الحساب ، وقال :

هبينى امرأ أذنبت ذنبا جهلته ولم آته عمدا وذو الحلم يجهل
عفا الله عما قد مضى لست عائدا وها آنذا من سخطكم أتنصل

وهو معنى مبنى على قوله تعالى (عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) .

وختاما فإن ربيعه الرقى شاعر عباسى ضرير لم تكتب لـــه العنايـــة والشهرة فكان من مغمورى الشعراء ، الذين ضاع أكثر شعرهم ونسب إليـهم شعر غيرهم ، وقد صدر فى شعره عن انفعال مميز وقدرة فنية خاصة ، كما كان مرهف الحس مشبوب العواطف يعيش لفنه فى حريـــة ويضعـــه فـــوق شهواته وقد جسد صورة الاضطراب الاجتماعى فى شعره الغزلـــى ، ومـــا يزال شعره فى حاجة إلى جمعه من مظانة المتفرقة فى كتب الأدب ، حيـــن يكتمل جمعه فإنه سيتبدى شاعرا يقف فى مصاف كبار الشعراء العباسيين ..

وبالله التوفيق